

مقدمة كتاب (مدخل إلى الحضارة الإسلامية)

للدكتور عماد الدين خليل

تعاني مناهج دراسة الحضارة الإسلامية في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا من عيوب شتى، أبرزها – ولا ريب – تقطيع جسد هذه الحضارة وتقديمها للطالب مزقا وتفاريق. وهي بهذا ستفقد شخصيتها المتميزة وملامحها المتفردة التي تمنحها الخصوصية بين الحضارات، وتصير مجرد أنشطة ثقافية أو معرفية أو مدنية في هذا المجال أو ذاك، قد تتميز ببعض الخصائص، لكنها لا تعكس التصور النهائي لرؤية المنتمين إليها للحياة والعالم والوجود.

إن معاهدنا وجامعاتنا تقطع سياق هذه الحضارة ووحدتها، فيما تسميه "الضرورات الزمنية" حيناً، و"المنهجية" حيناً آخر، و"التخصصية" حيناً ثالثاً. فتدرس النشاط الاقتصادي في سنة أو مساق، والحياة الاجتماعية في مساق آخر، والحركة العلمية في مساق ثالث، والنظم الإدارية في مساق رابع. لا بل أنها حتى وهي تدرس كل واحد من هذه المساقات تتعامل معه مقطعا مجزءا لا يكاد يملك خصوصياته وتميزه على مستوى التصورات التي تصوغه والممارسات التي تنزل به إلى واقع الحياة.

وهكذا تصير دراسة الحضارة الإسلامية – في نهاية الأمر – لهاثا وراء مبررات الجزية ودفاعا عن موقف الإسلام من فرضها على أهل الكتاب، وركضا وراء قوائم الضرائب الأخرى، ومتابعة للمحتسب وهو يتجول في الأسواق لمعاينة المخالفين. كما تصير استعراضا وصفا صرفا لمنظومة الدواوين التي لا أول لها ولا آخر، وللصراع على منصب الوزارة، وللترتيبات الأمنية والعسكرية للشرطة والجيش، كما تغدو في السياق العلمي تصنيفا فجا للعلوم النقلية والعقلية. وإحصاء للمدونات التي كتبها الأجداد. وفي سياق العمران يلقن الطلاب وصفا ماديا مملا لمفردات الرياسة وقياساتها وأحجامها بعيدا عن الخلفيات الرؤيوية التي وضعت لمساتها عليها وقدمتها للعالم وهي تحمل خطابا معماريا عز نظيره بين الثقافات.

ويتخرج تلميذ الثانوية والطالب الجامعي وهو لا يكاد يملك معرفة معمقة بخصائص حضارته الإسلامية، وبالمكونات التي تميزها عن الحضارات الأخرى، فضلا عن أنه يتخرج وهو لا يملك الاعتزاز بحضارته والفخر بها، بما أن النشاط التدريسي في التاريخ والحضارة ينطوي – بالضرورة – على بعد تربوي، لكن هذا البعد يتفكك ويغيب من خلال الخطيئة المنهجية التي لا تكاد تمنح الطالب أي ملمح يجعله يتشبث بترائث الحضاري باعتباره أقرب إلى مطامح الإنسان ومهامه الأساسية في هذا العالم. بل أننا قد نصل – في نهاية الأمر

الذي يتابع سير الظاهرة الحضارية عبر مراحلها المذكورة ويضع يده على خصائص كل مرحلة بما يجعلها أقرب إلى الفهم والتكشف.

مهما يكن من أمر ، فإننا اليوم ، ونحن نحاول أن ندرس حضارتنا الإسلامية ، بأمس الحاجة إلى منهج قريب من هذا يسعى لأن يتعامل مع هذه الحضارة كشخصية أو تكوين متميز بدء وصورته ونمو وانكماشاً وتدهوراً. فإذا تذكرنا أن حضارتنا هذه لم تتشكل من العدم ، ولم تلم شتاتها بطريقة ميكانيكية ، من هذه الحضارة أو تلك ، فتكون عالية عليها ، وأنها إنما نشأت بتأثيرات إسلامية ، ووفق شبكة شروط وتأسيسات محددة صاغها هذا الدين وأنها تكونت في رحم إسلامي وليس في أي رحم آخر ، وأن بصمات كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم على حجيراتنا وخلاياها ونبضها وجملتها العصبية ، من الأمور التي لا يكاد ينكرها باحث جاد. إذا عرفنا هذا كله ، أدركنا كم تكون جنايتنا على طلبتنا بتقديم هذه الحضارة إليهم مزقا وتفاريق ، وبنوع من فك الارتباط الساذج أو الخبيث ، الذي يعتمد التعامل معها كما لو يكن للتأثيرات الإسلامية في تكوينها أي حضور ملحوظ ، اللهم إلا في خانة ما يسمى بالعلوم التقليدية المعتقلة في المصنفات العتيقة والبعيدة عن تشكيل الحياة والنزول إلى المؤسسة والشارع والمدرسة والبيت.



إننا في عصر ما يسمى بصراع الثقافات .. زمن الغزو الفكري ومحاولات الاحتواء ، ونحن نتذكر مقولة (توينبي) بخصوص الحضارات الست المتبقية في العصر الراهن ، بعد غياب ما يزيد عن العشرين ، وأن هذه الحضارات المتبقية ، بما فيها الحضارة الإسلامية ، تلفظ أنفاسها وتدور في فلك الحضارة الغربية الغالبة ، وهي معرضة في أية لحظة للتفكك والتلاشي في مدارات هذه الحضارة.

فمن أجل مجابهة هذا المصير المحزن ، والتأبي على إغوائه ، علينا أن نتحصن في خصوصياتنا الحضارية ، أن نتشبث بعناصرها الفاعلة ومكوناتها القديرة على الديمومة ، وإرهاصات الواعدة بالمشاركة في المصير. ولن يتم هذا كله إن لم نملك منها شموليا وليس تفكيكيا ، لدراسة هذه الحضارة وإن لم نغرس في نفوس الطلبة وعقولهم خصيصة الاعتزاز بحضارتهم ، والثقة ، وليس فقط بقدرتها على الانبعاث ، وإنما بمواصلتها النمو ككرة أخرى وتقديمها الوعد بالخلاص للبشرية المعاصرة التي أوصلتها الحضارة الغربية المادية ، والأديان المحرفة ، والمحاولات التلقيفية ، إلى طريق مسدود.

وليس عبثا أن تكون الحضارة الوحيدة من بين سائر الحضارات التي شهدتها التاريخ البشري ، الحضارة القديرة على الانبعاث والنهوض مرة ثانية وثالثة ورابعة في قرن عشرين أو واحد وعشرين ، هي الحضارة الإسلامية ، لأنها تملك في أية لحظة ، شبكة شروطها في

كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتجد في الوقت الملائم — دائما — رحمها الذي يمكن ان تتخلق فيه كل مرة لكي تخرج إلى الحياة وهي تحمل قدرتها على التنامي لكي تستوي على سوقها.

إن الحضارة المصرية أو السومرية أو البابلية أو اليونانية أو البولينية أو غيرها من الحضارات المندثرة لا يمكن ان تستعيد قدرتها على النهوض كرة أخرى ، لأن شروط قيامها كانت تاريخية صرفة مرهونة بالزمن والمكان ، ولأن خلفياتها التصورية أو الدينية كانت مأسورة هي الأخرى في التاريخ ، ولن يكون بمقدورها أن تحقق حضورا في القرن الراهن ، أو القرون التالية ، لأنها لا تملك — ابتداء — مقومات الديمومة والاستجابة لتحديات العصور. حضارتنا الإسلامية تظل ، الوحيدة ، من بين سائر الحضارات الأخرى ، قديرة على الانبعاث ، لاسيما إذا تذكرنا قدرة النص القرآني والمعطى النبوي على حماية مصداقيتهما بوعد الله ، وشهادة التاريخ ، والوقائع ، على أنه ما من نص ذي أصل ديني قدر على مجابهة التحريف والتزييف كالنص الإسلامي.

ليس هذا فحسب ، بل أن التثبيت بمنهج أكثر سلامة لدراسة وتدريس الحضارة الإسلامية يغدو ضرورة من الضرورات إذا تذكرنا أننا اليوم مدعوون لتقديم البديل أو المشروع الحضاري قبالة الفراغ المؤكد الذي أحدثه سقوط جل النظم والأفكار والتجارب الوضعية ، الشمولية والمحدودة على السواء. فلقد سقطت الوجودية وأعقبتها الشيوعية ، ومن قبلهما تفتت دعاوى العرقية المتفوقة بانهيار ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية ، وسقطت بين هذا وذاك نظريات التفوق الغربي المبنية على سيادة الرجل الأبيض بانهيار الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى : البريطانية والفرنسية والروسية ، ومن قبلهما الإسبانية والبرتغالية.

أما الأديان المحرفة فقد وصلت إلى طريق مسدود وراحت تبحث عن منافذ للخروج حتى ولو جاء ذلك على حساب ثوابتها الدينية والأخلاقية من مثل ما تفعله بعض الكنائس لكسب الأنصار فيما يتناقض — ابتداء — مع اطروحات المسيحية وثوابتها.

وليس ثمة غير الإسلام من يقدر على ملء الفراغ ، على تقديم المشروع البديل الذي يكتسح هذا الغناء ، ويتموضع في قلب العصر ، مشاركا في صياغة الحاضر ، واعداد بمستقبل أكثر إنسانية .. بعالم أشد مقاربة للوضع البشري المتأزم. ويكفي ان نتذكر هنا جانبا من أقوال واستنتاجات مفكري الغرب المعاصرين والتي سترد في الفصل الرابع من هذا الباب لكي يتأكد لنا أن تأصيل وحماية هويتنا الثقافية يعدان ضرورة ليس في إطار عالم الإسلام وحده ولكن على مدى البشرية كلها.

هذا إلى أن حلقة أخرى من حلقات الحضارة الإسلامية لم تعط حقها من الاهتمام الكافي في دراساتها وتدريسنا لهذه الحضارة ، رغم أهمية هذه الحلقة : تلك هي ظاهرة التخلف والتدهور والانحلال.

ولطالما درسنا طلبتنا ، بإسهاب حيناً وإيجاز حيناً آخر ، عوامل سقوط هذه الدولة أو تلك من دول الإسلام ، كالأُمويين والعباسيين والفاطميين والعثمانيين .. لكننا لم نحاول – إلا نادراً – أن نقف طويلاً عند ظاهرة تدهور الحضارة الإسلامية نفسها – في سياقها التاريخي – بعيداً عن الأطر السياسية المحددة ، لمتابعة عوامل الشلل المتشعبة ، والتأشير عليها بقدر من العمق والوضوح ، فيما يمكن ان يقدم لنا خبرة بالغة الأهمية تتمثل في احتمالات النهوض من جديد في ضوء فهم وإدراك العوامل التي قادتنا عبر قرون طويلة ، إلى التدهور والانحلال.

ومرة أخرى فإن المشروع الحضاري البديل المنوط بالأمة الإسلامية في مطلع القرن الجديد لن يستكمل أسبابه وينطلق من البداية الصحيحة ما لم يضع في حسبانته كل العوامل التي قادت التجربة الحضارية السابقة إلى الانكماش والضمور. وحينذاك ، وفي ضوء وعي حضاري كهذا ، يمكن أن يتحقق التجاوز ، والمضي إلى الهدف بأكبر قدر من التحرر من عوامل الشد والإعاقة والتعطيل ، وفي ضوء المتغيرات التي تراكمت ، كما ونوعاً ، عبر القرون الأخيرة ، داخل الساحة الإسلامية وخارجها.

إن هذه الحلقة تحمل أهميتها الأكاديمية في الدراسات الحضارية ، ولكنها – في تجربتنا المعاصرة – تحمل فوق هذا ، قيمة مضافة لأنها ستعين على بناء المشروع الحضاري بأكبر قدر من الوعي والاستبصار.



هناك مسألة أخرى يتحتم التأشير عليها في مدخل كهذا ، تلك هي ضرورة ألا ننساق وراء التقسيم التقليدي المعروف الذي يتردد خلال الحديث عن " الحضارة " و " الثقافة " و " المدنية " .

ذلك هو أن " الحضارة " – أيًا كانت – تتضمن " المدنية " التي تعنى بالجوانب المادية : الاقتصادية والتطبيقية والعمرانية والتنظيمية ، و " الثقافة " التي تعنى بالجوانب المعرفية والأخلاقية والروحية والجمالية. وأن مكان العقائد والأديان إنما يحتل مساحة ما من الجانب الثقافي للحضارة.

والحق إن الدين ، أو العقيدة ، في المنظور الإسلامي ، إنما هي أوسع بكثير من أن تقتصر على جانب ما من دائرة الثقافة ، بل هي أوسع حتى من دائرة الحضارة على امتدادها.

إنها رؤية شاملة للكون والحياة والإنسان .. برنامج عمل ومنهاج حركة يهيمن على سائر المعطيات الحضارية : مدنية وثقافية ، ولا ينضوي تحت أية جزئية منها : مهما كانت فاعلية هذه الجزئية وغنى معطياتها.

إن هذه الرؤية العقيدية ذات الطابع الشمولي هي التي يتحتم أن تحتوي الحضارة ، وتصبغها ، وتمنحها خصائصها ، وترسم سبل صيرورتها ونموها .. وليس العكس بحال من الأحوال.

إن التقاليد المعرفية الوضعية ، من جهة ، وانكماش المساحة التي تحركت عليها النصرانية أو البوذية أو غيرها من الأديان والعقائد والفلسفات ، وعدم قدرتها على تغطية مطالب الحياة كافة ، والاستجابة لنداءات القوانين والسنن التاريخية ، من جهة أخرى ، هي التي كادت أن تفرض هذا التقسيم الخاطئ الذي يحجم دور العقيدة أو الدين ، ويجعله أسير مساحة أو حيز من دائرة أكثر اتساعاً هي دائرة الثقافة.

والخطأ الذي يتمخض عن افتراض كهذا يقوم على اعتبار النشاط الثقافي البشري هو القاعدة ، وهو الدائرة الأكثر اتساعاً ، وما الدين أو العقيدة ، حتى على افتراض التسليم المطلق بقدمها من السماء ، سوى جانب محدود من جوانب النشاط البشري ، جانب لا يظل محتفظاً بأصوله السماوية ، بل ينضاف إليه ، بمرور الوقت ، الكثير من المعطيات والاسقاطات البشرية لكي ما يلبث أن يغدو ، في كثير من الأحيان ، انعكاساً وضعياً صرفاً. في التجربة الغربية يمكن أن يجد المرء تبريراً لهذا الذي ينكمش فيه الدين ويغدو رافداً من عشرات الروافد التي تغذي بحر الثقافة الكبير .. يجد التبرير لأن التجربة الدينية نفسها ، كما مر بنا ، اختارت أن تتحرك على مساحة ضيقة من الأرض ، وتركت – بإرادتها أو بحكم طبيعة نسيجها وخبراتها – المساحات الأوسع يعيث بها العقل الوضعي على هواه.

لكننا كمسلمين لسنا ملزمين باعتبارات كهذه ، بتقسيمات هي وليدة تجربة غير تجربتنا ، وتاريخ غير تاريخنا ، ودين غير ديننا ، على وجه اليقين. فلقد جاء الإسلام لكي " ينظم " سائر شؤون الحياة المدنية والثقافية ، يصوغها ويهيمن عليها ، ويمنحها الطابع والصبغة .. جاء الإسلام لكي يشكل حضارته الخاصة به ، والتي تستمد مقوماتها من نسيجه وتوجهاته وخصائصه.

وما دام الإسلام يمد يده لكي يصوغ سائر مناحي الحياة المادية والروحية ، المدنية والثقافية ، فإنه ليس من قبيل التعسف القول بأن حضارة الإسلام إنما هي وليدة هذا الدين ، وأنها إنما تنمو في رحمته وتكسب مادتها وصورتها ، جسدها وروحها من نسغه الصاعد ودمه المتفجر بالحياة. وليس من قبيل التعسف رفض المقولة الخاطئة الشائعة التي تريد أن تجعل

الإسلام ومعطياته تحتل جانباً ما ، مساحة فحسب ، من نسيج عام لحضارة يتصورون خطأ أنها تمخضت بالضرورة عن نشاط بشري وضعي صرف .

إنه يستحيل منطقياً أن تجعل الإسلام يمثل جانباً محسوراً من مساحة واسعة تمتد إليها حضارة هي وليدة الإسلام نفسه . وإنما سنقع في هذا اللبس بالتأكيد لو أننا سمحنا لأنفسنا بأن ننساق وراء التقسيمات التقليدية للتركيب الحضاري ، وهي – على كثرة تكرارها – أصبحت تملك ثقلاً فرض على بعض الإسلاميين أنفسهم الخضوع لمقولاته .

وفي السياق نفسه يتحتم أن نكون حذرين إزاء الانسياق وراء التقسيمات التقليدية لأجداننا أنفسهم ، وهم يتحدثون عن علوم "نقلية" وأخرى "عقلية" وكأن هناك جداراً فاصلاً بين العلمين .

ويتساءل المرء : ألم يدخل الإسلام لكي يصوغ العلوم العقلية ويتوغل في جزئياتها ومسالكها برويته المتميزة وتحليله الخاص ؟ ويتساءل – كذلك – ألم تكن العلوم النقلية نفسها عقلية بمعنى من المعاني ، أي بكونها استجابة ناجحة متفردة لمطالب العقل البشري ؟
إننا بحاجة إلى التريث قليلاً ونحن نتعامل مع التقسيمات والمصطلحات وإنه ليتحتم علينا ان نرفض الكثير منها ، إذا اقتضى الأمر ، لكي ننحت ونصوغ مفرداتنا المنسجمة ورؤيتنا العقيدية وصبغتنا الإلهية : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٨) .



في ضوء ما تقدم ، ومن أجل تجاوز المنهج التفكيكي في دراسة الحضارة الإسلامية ، والمعمول به في معظم الجامعات العربية والإسلامية ، يمكن اعتماد السياقات التالية موزعة على سنوات الدراسة الجامعية الأربع (وفق النظام الإنكليزي) ، أو " المساقات " (وفق النظام الأميركي) :

السنة الأولى (أو المساق الأول) : أصول الحضارة الإسلامية : (التأسيسات الإسلامية للفاعل الحضاري في القرآن والسنة والتطبيقات التاريخية لعصري الرسالة والراشدين) .
السنة الثانية (أو المساق الثاني) : نمو الحضارة الإسلامية : (المعطيات والوظائف والخصائص) .

السنة الثالثة (أو المساق الثالث) : تدهور وانحلال الحضارة الإسلامية : (والعوامل الداخلية والخارجية) .

السنة الرابعة (أو المساق الرابع) : واقع الحضارة الإسلامية ومستقبلها (قبالة تحديات التكنولوجيا ، والتفوق الغربي ، والنظام العالمي الجديد ، والنظريات الأكثر حداثة بخصوص

التاريخ والحضارة ، ومقومات المشروع الحضاري البديل ، واحتمالات المشاركة العالمية في المصير) .

ثمة – أخيراً – ما يجب التنبيه عليه ، وهو أن هذا الكتاب لا يعدو أن يكون خطوطاً عريضة تتضمن الحد الأدنى من مفردات كل موضوع ، بما يناسب مرحلة الدراسة الجامعية الأولية (البكالوريوس) ، والمساحة الزمنية المعطاة لكل سياق . ومن ثم فإن المحاولة تظل مشروعاً مفتوحاً قابلاً للإضافة والإغناء على أيدي الأساتذة الذين سيتولون تدريس المادة ، وفي ضوء الزمن المخصص لكل سياق .